قصة : طه حواس

العروسة

قطرات المطـــر تتســاقط . الرياح سريعة باردة . الطريق موحل . الناس يسرعون الخطا . لا يلتفت احدهم الى الآخر .. نظراتهم الى اسفل .. السماء معتمة . العربات فى الشـــوارع ترشي السائرين بالوحل . ازير طائرات عابرة يملأ الميدان . أطفال يلعبون تحت المطر، تغوص اقدامهم فى الوحل . يتصارعون يضحكون يتقاذفون بحصـوات يغمرها الطين ، يملأون الميدان صياحا وحركة .. وعلى جانب الطريق سيدتان . احداهما ممتلئة ترتدى رداء اسود . اما الاخرى فكان رداؤها زاهى الألوان . كانتا تسيران فى بطء ، تتفاديان المطر بالسير تحت مظلات الدكاكين التجارية . وبعد خطوات دخلتا احد الحوانيت . وقفت

ذات الرداء الأسمر أمام البائع . جذبت زميلتها من يدها لتطمئن الى وجودها بجوارها . وقربت فمها ناحية اذنهـا وهمست . وعلى وجهها ملامح ابتسامة رقيقة .

ـ أخبريني يا نوال . ماذا تريد فتاة في سن الرابعة ؟ أنا لا أريد أن ينقصها شيء .. اسمعي يا نوال سأشتري لها عروسة .. عروسة كبيرة .. هل البائع موجود يا نوال ؟ .

رد البائع على سؤالها بصوت خفيض .

ـ موجود يا هانم اي خدمة ؟ .

اتجهت ذات الرداء الأسمر نحـو البائع .

ـ ارنا العرائس .. اريدها جميلة وحياتك ..

ـ حاضر .

انصرف البـائع يحضر العـرائس واستمرت ذات الرداء الأسـمر تسأل نوال .

ـ الواجب ان اشترى لها الفساتين اولا . ما رايك يا نوال ؟

آه .. يجب أن اشترى لها كل شيء . اليس كذلك ؟ .

ـ طبعا ياعزيزة .. طبعا ..

اقبل البائع يضع صناديق العرائس امام الصديقتين .

ـ العرائس يا هانم ..

وارتفع صوت عزيزة .

ـ اختاري عروسة جميلة يا نوال .

وضع البائع الصناديق امامهما .. في صف طويل نزع عنها أغطيتها . بدت العرائس في الصناديق . كالأطفال الصغيرة التي ترقد في المهـد . تنطق وجوهها ببهجة الحياة .. امتدت يد نوال الى صندوق واخرجت منـه عروسة .. وارتفع صوتها ..

ـ الله .. عروسة جميلة جدا .. يا عزيزة .. تشبه الملاك مدت عزيزة ذراعيها أسلمتها نوال العروسة وهي تقول ..

ـ أحسن عروسة .

اخذت عزيزة العروسة . تحسستها بيديها .. ومرت بأصابعها على وجهها . ولمست خديها الناعمين في رفق وأمالت راسها وعدلتها .. طربت لصوتها .

ـ ماما .. بابا .. ماما .. بابا ..

اثار الصوت في نفسها أشياء خامدة . بعثت فيها نشوة جديدة . لها لذة الحلم الجميل .. ظلت تحرك العروسـة وتستمع الى صوتها . ثم رفعتها بين يديها الى صـدرها .. احتضنتها في حنان . نظرت اليها نوال والى البـائع الذي كان ينظر الى صديقتها .

ـ ماذا ستشترين ايضا يا عزيزة ..

وقالت عزيزة وهي كالنائمة .

ـ نعم .. ماذا قلت ؟

ـ قلت ماذا ستشترين بعد العروسة ؟

ـ آه .. سأشترى كل شيء يلزم بنت في سن الرابعة . الم اقل هذا من قبل ؟ انها تستحق كل شيء . اني سأجعلهـا اسعد بنت في العـالم .. سأعلمها الموسيقى . بعد دروسي في المدرسة . بعد ان اترك الأطفال المغاربة سأتفرغ لها . سأشترى لها بيانو جديدا غـير الذي عندي وسألها البائع .

ـ ماذا تريدين بعد العروسة ؟ .

ـ بعد العروســـة .. آه .. أيوه يا نوال . ماذا تريد البنت أيضا غير العروسة ؟

ـ الفساتين .

الفساتين صحيح .

ثم وجهت كلامها للبائع .

ـ هات لنا سبعة فساتين .

وقال البائع يردد الكلمة ..

ـ سبعة فساتين .. ؟

واجابت عزيزة وهى تهز راسها علامة التاكيد .

ـ نعم سبعة فساتين .. أنا اريدها ان تلبس كل يوم فستانا جديدا .. آه يانوال لو أمكن أن أذهب أنا وهى الى مكان بعيد .. بعيد عن.. الناس كل الناس .. أنا أريدها الا تعرف أحدا غيرى.. أريد أن أكون لها أما . وأبا . وأختا . زميلة وصديقة. وكل الناس. وتوقفت لحظة عن الحديث . مرت يدها على ظهـــرها .. وتحسست أقدامها الصغيرة الملساء ثم رفعت صوتها ..

ـ هات لها حذائين .. لا .. سبعة أحذية . لكل فستان حذاء . انصرف البائع بحصر الأحذية .. أخذت نوال تتفحص الفساتين .. بينما تصل الى أذنيها همسات عزيزة ..

ـ هم قالوا لى ان شـــاء الله طلبك سيقبل .. ولابد أنهم سيرسلوها .. انا التى ساذهب الى هناك لاحضرها .. هذا احسن اليس كذلك ؟ انا اعتقـد هـــذا .. لان قلبى دائما يقـــول لى الحقيقة .. وقلبى يقول لى الآن . انهم سيلبون طلبى . أنا عندى المال .. عندى الفلوس .. فلوس كثيرة .. وعنـدى عمارة .. عمـــارة كبيرة انت تعرفينها يا نوال .. سأكتب لها حقى فيها . كل ما أملك سأكتبه لها .. وعندما تكبر سأحدثها عن اشياء كثيرة . سأقول لها يا بنتى .. لقد أذانى أولاد خالتك . كثيرا ما وضعوا المقاعد والأشياء فى طريقى لاتعثر واسقط على الأرض .. ليضحكوا منى .. لقد عانيت منهـم الكثير .. والأطفال الصغار فى المدرسة .. سألونى كثيرا .. اليس لك أطفال يا أبله ؟

نريد أن نلعب معهم يا أبله ..

ما عدا هذه الأسئلة فأطفال المدرسة طيبون . أولاد حلال . فى الأيام التى كان يهملنى أولاد خالتـــــك يا بنتى كانوا يتسابقون كل منهم يريد أن يأخذ بيدى عبر الشارع الى المدرسة أو البيت . ولكن سؤالهم عن أطفالى كان يزعجنى يا بنتى ..

وضعت العروسة الى صـــدرها . وربتت على كتفها . ثم اســـتمرت فى همسها ..

ـ ولكن بعد الآن لن يزعجنى هـــذا السؤال يا بنتى . وان شاء الله سيكون لك مســـتقبل رائع . سأبنيه لك من الآن . ولكن الخوف من خالتك فقـــد تقتلك . قد تضع لك السم .. أو تصلت عليـــك أولادها .. وأنا لا أراك . فلا تأخذى منها شيئا مطلقـــا .. ومالت العروسة فانطلق صوتها ..

ـ بابا .. ماما ..

ـ وارتفع صوت عزيزة .

ـ مالك يا روح ماما .. ؟؟

ووعت الى نفسها بعـد هزة من يد نوال .

ـ عزيزة .. مالك يا عزيزة ..

واجابتها عزيزة اجابة من يصحو من اغفاءة ..

ـ لا شيء يا نوال .. لا شيء لقد حلمت قليلا ..

اقبل البائع . وضع الاحذية امام الصديقتين ..

ـ الاحذية يا هانم ..

ـ اختاري ما يناسب يا نوال .

نظر البائع الى نوال وقال ..

ـ كان من الافضل أن تحضر العتاة معكما لتأخذ الاحذية المناسبة .

التفتت نوال الى عزيزة وقالت ..

ـ ما رايك يا نوال ؟ أعتقد ان هذا كلام سليم . ننتظر الى ان تاتي البنت. ثم نحضرها معنا لتأخذ الاحذية المناسبة .

صمت عزيزة العروسة الى صدرها.. وقالت ..

ـ لا عليك يا نوال .

ثم التفتت الى البائع .

ـ الا تعرف مقاس فى سن الرابعة ؟

ـ لا مؤاخذة يا هانم هى البنت فى مكان بعيد ؟

ـ لا ابدا .. وعلى كل حال ..لا تخشى على الاحذية . عندما تحضر

البنت . وبتبين غير صلاحيتها . أعاهدك أني لن أردها وسأشترى منك غيرها .. انت لا تعرف يا بنى كم هذه البنت غالية عندى .. انها عندى اغلى من كل شىء .. توكل على الله واحزم الأشياء التى اخذناها .. اما العروسة فاتركها معى كما هى . ساسير فى الشارع وهى على ذراعى ..

ـ امرك يا هانم . ربنا يخليها لك .. وتتربى فى عزك ..

لو كان كل واحد يعز اولاده مثلك لملأت السعادة البيوت .

وقالت عزيزة فى حماس ..

ـ يجب أن يحسوا اننا امهاتهم حقا .. اليس كذلك يا نوال ؟؟

آه يا نوال .. انى أخشى عليها من خالتها واولادها . انهم شياطين . ابالسة . لا يدرون ما يفعلون . لقد عذبونى كثيرا .. لذلك لا اريدها أن تعرفهم ولا تتصل بهم .. انهم ربما يقتلونها .. نعم يا نوال يقتلونها . لأنها ستشاركهم ثروتى بعد موتى .. يجب ان آخذها بعيدا عنهم .. وعن أولاد الشارع لأن أخلاقهم فاسدة لا تعجبنى.

سأذهب بها بعيدا عن الجميع .. لقد قدمت الطلب من مدة طويلة ، وكلما اذهب اليهم يقولون لى .. ان طلبك لم يبحث . لقد تعبت من الذهاب اليهم يا نوال .. ارجوك ان تساعدينى فى هذه المسألة يا نوال .. اذهبى اليهم غدا وقولى لهم اننى اشتريت لها اشياء جميلة حلوة تتمناها كل فتاة . كل بنت تتمنى أن تكون لها مثل هذه الأشياء يا سلام يا نوال .. انت لا تتخيلين كم ساكون سعيدة بهذه البنت . ان العالم سيصبح ملكى .. ساملكه عندما املكها. سابعدها عن كل سوء .. ساجعلها تعيش فى جنة يا نوال لأنها ستكون جنتى .. نوال .. لماذا لا تتكلمين يا نوال .. انا أعرف لقد تعبتك معى كثيرا .. ولكن المسألة ستنتهى قريبا.. سيرسلونها بعد ان تذهبى اليهم .. انا متاكدة يا نوال .. وسوف تأتين لزيارتنا انا وهى .. بنتى يا نوال وستدركين مدى اعزازى لها ..

جففت نوال دمعات جالت فى عينيها ونظرت الى عزيزة . وقالت بنبرة مخنوقة ..

ـ ان شاء الله .. هذا امر لا يحتاج الى توصية يا عزيزة ..

وسرحت بذهنها تسائل نفسها .. وهى تنظر الى عزيزة تحتضن العروسة..

ـ ماذا لو عرفت ان ادارة الملجأ لا يمكن ان تسلم بنتا لامرأة مثلها عمياء فى حاجة الى رعاية . وكيف أقول لها هذه الحقيقة ؟

انها الآن فى حلم .. ويجب أن تعيش فيه أطول مدة ممكنة .

انا لا استطيع ان اوقظها منه .. ليوقظها غيرى .. اما انا فساقول لها دائما .. ان طلبها لم يبحث بعد .. ثم رفعت صوتها تخاطبها . عندما وصلنا الى باب الحانوت ..

ـ ان شاء الله يا عزيزة ربنا يساعدك ..

خرجنا من الحانوت .. نظرت نوال الى الميدان .. المطر يتساقط عربات الأجرة تتسابق .. الأطفال يجرون . يتشاجرون .. يتقاذفون بالحجارة .. عزيزة تحمل العروسة بين ذراعيها

تصمها الى صدرها . كما تضم الأم رضيعها الى ثديها . سارت مع نوال خطوات فى الطريق .. صرخات الأطفال تصل الى آذانهما .. اقترب منهما طفل . نظر الى العروسة وهو يجرى .. رماه زميله بحصاة أصابت ذراع عزيزة . سقطت العروسة فى الطين .. انحنت عزيزة لتتحسسها . مرت عربة أجرة فى سرعة .. تطاير رذاذ الوحل . فأصاب وجهها ويديها .

امسكت بها نوال من كتفها جذبتها بعيدا عن الطريق .. مرت عربة أخرى من خلفهما . داست عجلاتها العروسة الملقاة فى الوحل . ارتفع صوت عزيزة ..

ـ العروسة يا نوال العروسة ..

ـ معلهش يا عزيزة . نشترى غيرها .. لقد سقطت وداستها العربة ..

ـ يا خسارة . كانت جميلة وصوتها حلو .. لازم أشترى غيرها ..

ـ طبعا يا عزيزة .. سنشترى غيرها أحسن منها .. ولكن فى يوم آخر .. فى يوم آخر يا عزيزة ..

ـ ضرورى قبل أن يرسلوا البنت .. لابد أن تكون العروسة عندى يا نوال .. ولا تنسى أن تمرى عليهم غدا ..

ـ ان شاء الله ..

وسارتا فى بطء .. داخل احدى الحارات . يرتفع خلفهما صياح الأطفال يملأ الميدان .. عاد أربز الطائرات . السماء معتمة .. الرياح سريعة باردة . قطرات المطر تتساقط ترتطم بكل شىء فى الميدان .

« طه حواس »